

مصادر

د رمضان عبد التواب

جلول الدين (السيوطي)

علوم اللغة وأنواعها

في
كتابه

المعز

کتاب

كتاب

المرحوم في علوم اللغة وأنواعها، أشهر كتب جلال الدين السيوطي اللغوية ، بل إنه أشهر كتب فقه اللغة في العربية ، جمع فيه مؤلفه حصاد القرون الطويلة التي سبقته في الدراسات اللغوية عند العرب ، واستوعب فيه كل ما وصلت إليه يده من مؤلفات السابقين ، في القضايا التي أثارها في كتابه ، بدءاً من ١٢٤ من حديثه عن أصل اللغة ونشأتها ، ومروراً بطرق تحمل العلم باللغة ، ومعرفة الفصح والمطرد والشاذ والتأخر ، والمغرب والمولد ، وخصائص العربية في ظواهر الاشتقاق والحقيقة وإغماز ، والمشتراك والتضاد والترادف ، والإنباع والإبدال ، والقلب والنحت ، والمثنى والمكثى والمجني ، والملاحن والألغاز ، والأشياء والتظائر ... وانتهاء بالحديث عن آداب اللغوي ، ومعرفة ما ينتاب كتابة اللغة من التصحيف والتحريف ، وطبقات اللغويين وأسمائهم وكتابهم وألقابهم وأنسابهم ، وأغلاط الشعراء والرواة وأكاذيب الأعراب ، وما إلى ذلك

ومثل ذلك أيضاً نقله ما ذكره الفيروز آبادي من أسماء العسل في كتابه : «ترقيق الأصل لتصفيق العسل» ، وقوله بعد أن انتهى منه : «قلت : ما استوفى أحد مثل هذا الاستيفاء ، ومع ذلك فقد فاتته بعض الألفاظ»^(٦٢) ، ثم استكمل هذه الألفاظ من أمالي القاضي ، وأمالي الزجاجي^(٦٣) .

ويشبه هذا أيضاً صنيعه مع كتاب «المتنى والمبني» لابن السكيت ، فقد نقل منه عشر صفحات كاملة ، ثم قال : «هذا ما أورده ابن السكيت في هذا الباب ، وقد جمع فأوعى ، ومع ذلك فقد فاتته ألفاظ»^(٦٤) . وقد استدرك السيوطي هذا الفائت من ديوان الأدب ، والغريب المصنف ، والجمهرة ، وغيرها .

وأحياناً ينقل السيوطي فصولاً كاملة من مصادره ، كما فعل ذلك حين نقل الفصلين الرابع والخامس من كتاب «ملع الأدلة» لأبي البركات بن الأنباري (٨٣ - ٨٤) بالحرف الواحد^(٦٥) . وكما فعل في باب : «ذكر ما جاء في فمالة» ، إذ نقله كله من «الغريب المصنف» لأبي عبيد ، وقال في آخره : «هذا جميع ما في الغريب المصنف»^(٦٦) .

وفي بعض الأحيان يلخص السيوطي ما في مصادره تلخيصاً شديداً ، كما فعل حين لخص كتاب : «مراتب النحويين» لأبي الطيب اللغوي ، في عشرين صفحة ، وقال في آخرها : «انتهى كلام أبي الطيب في كتاب مراتب النحويين ملخصاً»^(٦٧) . وهو لا يغفل الإشارة إلى ما لخصه من نصوص مصادره ، كما رأينا في العبارة السابقة ، وكقوله في موضع آخر مثلاً : «انتهى كلام ابن جني ملخصاً»^(٦٨) .

وقد نثر السيوطي كثيراً من مسائل «الصاحبي» لابن فارس ، و«الخصائص» لابن جني ، في مزهره ، فقد نقل عن الأول ست صفحات كاملة في أحد المواضع ، ثم قال : «هذا كله كلام ابن فارس»^(٦٩) . كما أكثر من النقل عنه في افتتاحيات كثير من أبوابه^(٧٠) . وقد نص السيوطي على استفادته الكاملة من هذا الكتاب ، فقال مرة : «قلت : قد رأيت نسخة من هذا الكتاب مقروءة على المصنف ، وعليها خطه ، وقد نقلت غالب ما فيه في هذا الكتاب»^(٧١) . كما نقل

عن «الخصائص» كثيراً كذلك ، إذ نقل منه ست صفحات في أصل اللغة ، وقال في آخرها : «هذا كله كلام ابن جني»^(١٢) . وهناك نقل آخر في سبع صفحات في موضوع : المهمل والمستعمل ، قال بعده : «انتهى كلام ابن جني»^(١٣) . وفي باب : سقطات العلماء ، نقل عنه اثني عشرة صفحة ، وقال : «انتهى ما أورده ابن جني»^(١٤) .

ومن أمثلة النقل المطول عن المصادر ، نقله رسالة في حوالي ثلاثين صفحة^(١٥) ، من ديوان رسائل الشريف أبي القاسم علي بن الحسين المصري ، في الألفاظ اللغوية ، ثم نقله المقامة الثانية والثلاثين في الألفاظ من مقامات الحريري كاملة^(١٦) .

ومع تطويله النقل عن بعض المصادر على هذا النحو ، نراه لا يستخدم في بعض الأحيان كل الكتب المتخصصة في الموضوع الذي يكتب فيه ، في موضوع «المشجر» مثلاً ، لم يستخدم السيوطي كتاب «المدخل» لأبي عمر الزاهد (٣٤٥ هـ) ، ولا كتاب : «المسلل» لأبي الطاهر التميمي (٥٣٨ هـ) . وفي موضوع «الإبتياع» لم يستخدم كتاب «الإبتياع» لأبي الطيب اللغوي (٣٥١ هـ) . وكذلك في موضوع «الإبدال» لم يفد من كتاب «الإبدال» لأبي الطيب اللغوي شيئاً . ونراه كذلك في موضوع «الأمثال» لا يستخدم بعض الكتب المهمة ، مثل : «جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) و«مجمع الأمثال» للميداني (٥١٨ هـ) و«المستقصى» للزمخشري (٥٣٨ هـ) وغير ذلك .

• • •

وتنقسم مصادر السيوطي في مزهره ، إلى أنواع شتى من حيث التخصص ، على النحو التالي :

- ١ - كتب في فقه اللغة ، كالمصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ، والخصائص لابن جني .
- ٢ - معاجم عربية مرتبة على الموضوعات ، مثل : الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام ، وفقه اللغة للثعالبي^(١٧) . أو مرتبة على المخارج ، مثل : العين للخليل بن أحمد ،

ومختصره لأنّي بكر الزبيدي ، وتهذيب اللغة للأزهري ، واحكم المحيط الأعظم لابن سيدة ، واستدراك الغلط الواقع في كتاب العين للزبيدي . أو مرتبة ترتيباً هجائياً أو على المباني ، مثل : الصحاح للجوهري ، والقاموس المحيط للفيروز آبادي ، والعياب للصاغاني ، وجمهرة اللغة لابن دريد ، وديوان الأدب للفاراني ، والمجمل لابن فارس .

٣- كتب لغوية متخصصة في موضوع واحد ، مثل : الإبدال لابن السكيت ، والأيام والليالي للفراء . وما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد ، والمقصود والممدود لابن ولاد ، والأضداد لأنّي بكر بن الأنباري ، والإتياع لابن فارس ، وشجر الدر لأنّي الطيب اللغوي ، والمقصود والممدود لأنّي علي القالي ، وما جاء على فعال للصاغاني ، والمثنى لأنّي الطيب اللغوي ، والموازنة لحمزة بن الحسن الإصطهاني ، وخلق الإنسان للصاغاني ، والأجناس للأصمعي ، والمقصود والممدود لابن السكيت ، والفروق لأنّي الطيب اللغوي ، والأصوات لابن السكيت ، واللبل والنهار لأنّي حاتم السجستاني .

٤- كتب في النحو الصرف ، مثل : الكتاب لسيبويه ، وأصول النحو لابن السراج ، وارتشاف الضرب لأنّي حيان ، والتسهيل لابن مالك ، ونع الأدلة لأنّي البركات بن الأنباري ، وشرح التسهيل لأنّي حيان ، وسفر السعادة للسخاوي ، والإنصاف لأنّي البركات ابن الأنباري ، وشرح فصول ابن معط لابن إياز ، والغرة في شرح اللمع لابن الدهان . وشرح المفصل للسخاوي ، وشرح الشافية للجاربردي .

٥- كتب في لحن العامة ، مثل : إصلاح المنطق لابن السكيت ، وتهذيب الخطيب التبريزي ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وشرحه للجواليقي والزجاجي ، والفصيح لثعلب ، وشرحه لابن درستويه والمرزوقي وابن خالويه والبطليوسي ، وذيله للموفق البغدادي .

٦- كتب الأماني ؛ مثل : أماني ثعلب المعروفة بمجالس ثعلب ، والأماني لأنّي علي القالي ، وأماني الزجاجي ، وأماني ابن دريد ، وأماني أبي عبيد .

٧- كتب النوادر ، كالكتب التي ألفها كل من أبي زيد الأنصاري ، وأبي محمد اليزيدي ، وابن الأعرابي ، ويونس بن حبيب ، وأبي عمرو الشيباني ، والشجيري .

٨- دواوين الأدب والمجاميع الشعرية ، مثل : بئمة الدهر للشعالي ، والأغاني لأبي الفرج الإصفهاني ، والكامل للمبرد ، وشرح المملكات لأبي جعفر النحاس ، وديع الأبرار للزحشري ، ومقامات الحريري ، ونشوار الغاضرة للتونجي ، وشرح شعر هذيل للسكري ، والحمقي والمغفلين لابن الجوزي ، وجمهرة أشعار العرب لمحمد بن أبي الخطاب ، وأيام العرب لأبي عبيدة ، وشروح المقامات للمطرزي والنحاس وسلامة الأنباري ، وشرح كامل المبرد لأبي إسحاق البطليوسي .

٩- مجاميع أمثال العرب ، مثل : الزاهر في معاني كلمات الناس لأبي بكر بن الأنباري ، وجامع الأمثال لأبي علي أحمد بن إسماعيل القمي .

١٠- كتب في البلاغة والنقد القديم ، مثل : الإيضاح للقرطبي ، ومنهاج البلغاء لحازم القرطاجني ، وسر الفصاحة لابن سنان ، والعمدة لابن رشيق ، وعروس الأفراح ليهاء الدين السبكي ، والطريق إلى الفصاحة لابن النفيس .

١١- كتب في الأصول والفقه ، مثل : شرح منهاج الأصول للإسنوي ، والمغصول لقهر الدين الرازي ، والوصول إلى الأصول لأبي الفتح بن برهان ، وشرح منهاج البيضاوي لتاج الدين السبكي . وشرح المغصول للقرافي . والمخلص في أصول الفقه للقاضي عبد الوهاب السبكي . والروضة للإمام النووي .

١٢- كتب في التفسير : مثل : تفسير الطبري ، والبحر الغيظ للزركشي ، والتفسير لوكيع . والتفسير لابن جزي .

١٣- كتب في الحديث ، مثل صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، والمستدرک للحاكم . وشعب الإيمان للبيهقي ، وغريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام . والأدب المفرد

للبخاري ، ومستند أحمد بن حنبل .

١٤ - كتب في التراجم والطبقات ، مثل : طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ، ومراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ، ومن سمي عمرًا من الشعراء لابن الجراح ، والمؤتلف والمختلف للآمدي .

١٥ - كتب تاريخية ، مثل : تاريخ دمشق لابن عساكر ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وتاريخ حلب للكمال بن العديم ، وتاريخ المسعودي (مروج الذهب) ، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار .

• • •

هذه هي جمهرة المصادر التي رجع إليها جلال الدين السيوطي ، في تأليف موسوعته اللغوية : «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» . وبعض هذه المصادر مفقود لا وجود له الآن ، مثل : الأجناس للأصمعي ، والأصوات لابن السكيت ، والليل والنهار لأبي حاتم السجستاني ، والفروق لأبي الطيب اللغوي ، وشرح الفصح لابن خالوية ، وأيام العرب لأبي عبيدة ، والنوادر لأبي عمرو الشيباني . والنوادر ليونس بن حبيب .

وهذا الكتاب الأخير كان قليل الوجود في عصر ابن مكرم (٧٤٩ هـ) ، إذ قال عنه السيوطي في المزهر : «وفي النوادر ليونس ، رواية محمد بن سلام الجمحي عنه - وهذا الكتاب لم ألق عليه ، إلا أنني وقفت على متقى منه ، بخط الشيخ تاج الدين بن مكرم النحوي ، وقال عنه : إنه كتاب كثير الفائدة قليل الوجود» (١٨) .

وبعض مصادر السيوطي في مزهره ، لا يزال مخطوطاً ينتظر من يحققه وينشره ، وينغض غبار الزمن عنه . مستعيناً على تحقيقه بالتصوص التي اقتبسها السيوطي منه . مثل الموازنة لحمزة ابن الحسن الاصفهاني ، وشرح المفصل للسخاوي ، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار . ومن

المصادر المخطوطة ما هو تحت الطبع ، بعد أن اشتغل بتحقيقها بعض المعاصرين ؛ مثل : العين للخليل بن أحمد ، والمقصود والمدود للقي ، والغريب المصنف لأبي عبيد ، وارتشاف الضرب لأبي حيان ، وسفر السعادة للسخاوي ، والأمال لابن دريد ، والنوادر لابن الأعرابي .

ومن المصادر ما رآه السيوطي ، ثم افقده في أثناء تأليفه للزهر ، كهذا الكتاب الذي ذكره في النوع السابع والثلاثين ، في معرفة ما ورد بوجهين بحيث يؤمن فيه التصحيح ؛ فقال : «وقد رأيت من عدة سنين في هذا النوع مؤلفاً في مجلد ، لم يكتب عليه اسم مؤلفه ، ولا هو عندي الآن حال تأليف هذا الكتاب . ورأيت لصاحب القاموس تأليفاً سماه : تحبير الموشين فيما يقال بالسین والشين ، ولم يحضر عندي الآن ... فأعملت فكري في استخراج أمثلة ذلك من كتب اللغة^(١٩)» .

وكتاب : «فيا فقيه العرب» لابن فارس ، الذي نشره حسين علي محفوظ بدمشق سنة ١٩٥٨ م ، كان عند السيوطي كذلك ، ثم افقده عند تأليف الزهر ، فقال : «وقد ألف ابن فارس تأليفاً لطيفاً في كرامة ، سماه بهذا الاسم (فيا فقيه العرب) رأيت قديماً ، وليس هو الآن عندي ... فتذكر ما وقع من ذلك في مقامات الحريري ، ثم إن ظفرت بكتاب ابن فارس ، ألحقت ما فيه^(٢٠)» . ويبدو أن السيوطي لم يظفر بهذا الكتاب مرة أخرى ، حتى مات رحمه الله .

ومثل ذلك يتحدث السيوطي عن كتاب : «ليس في كلام العرب» لابن خالويه ، فيقول في باب : معرفة الأشياء والنظائر^(٢١) : «هذا نوع مهم ينبغي الاعتناء به ، فيه تعرف نوادر اللغة وشواردها ، ولا يقوم به إلا مضطلع بالفن واسع الاطلاع ، كثير النظر والمراجعة . وقد ألف ابن خالويه كتاباً حافلاً ، في ثلاثة مجلدات ضخمة ، سماه : كتاب ليس ، موضوعه : ليس في اللغة كذا إلا كذا . وقد طالعت قديماً ، وانتقيت منه فوائد ، وليس هو بحاضر عندي الآن . وأنا أذكر إن شاء الله في هذا النوع ، ما يقضي الناظر فيه العجب ، وآت فيه بدائع وغرائب ، إذا وقف عليها الحافظ المطلع ، يقول : هذا منتهى الأرب» .

وهذا أحد المواضع التي يظهر فيها أسلوب السيوطي ، في التقديم لأبواب الزهر المختلفة . أما الفوائد التي انتقاها من كتاب «ليس» لابن خالويه قديماً ، فتظهر مثورة هنا وهناك في الزهر ، ومنها في أحد المواضع اثنتا عشرة صفحة ، قال في آخرها : «هذا آخر المتن من كتاب ليس لابن خالويه»^(٢٢) .

وبعض مصادر الزهر كانت عند السيوطي بخطوط مؤلفها ، فقد ذكر أنه رأى تاريخ حلب للكمال بن العديم بخطه^(٢٣) ، كما كانت عنده تذكرة الشيخ تاج الدين بن مكتوم القيسي بخطه^(٢٤) ، وكانت عنده ثلاثة كتب للنجيري كلها بخطه ، وهي : التعليق^(٢٥) ، والفوائد^(٢٦) ، والنوادر^(٢٧) ، كما نقل «من خط الشيخ بدر الدين الزركشي في كراسة له سماها : عمل من طب لمن حب»^(٢٨) .

وتبلغ نسبة النصوص المنقولة عن كتب مفقودة ، في الزهر حوالي ٤٠ ٪ من حجم الكتاب . ومن هنا تبدو قيمة كتاب الزهر للسيوطي ، الذي حفظ لنا نصوصاً كثيرة ، ضاعت أصولها ولم تصل إلينا . وهو في مثل هذه النصوص يعدّ مصدراً أصيلاً في البحث العلمي . وتختلف معاملة السيوطي لمصادره من مؤلف إلى مؤلف ، فهو أحياناً ينقل نقلاً حرفياً ما أمامه من نصوص في مصادره ، مثلاً ذكرناه من قبل ، من نقله الفصلين الرابع والخامس من كتاب : «ملع الأدلة» لابن الأنباري ، بالحرف الواحد .

وأحياناً يتصرف ، ويقدم ويؤخر ، ويغذف ويختصر ، كما فعل في باب «الأضداد»^(٢٩) الذي نقله من كتاب : «الغريب المصنف» لأبي عبيد القاسم بن سلام ، فإننا إذا طالعنا هذا الكتاب الأخير ، رأينا أبا عبيد يروي في باب الأضداد منه عن أبي زيد ، ثم عن البيهقي . ثم عن أبي زيد مرة ثانية ، ثم عن الأصمعي ، ثم عن أبي عبيدة ، ثم عن الكسائي ، ثم عن أبي زيد مرة ثالثة ، ثم عن الكسائي مرة ثانية ، ثم عن الأموي ، ثم عن الأصمعي مرة ثانية ، ثم عن عبيدة مرة ثانية ، ثم عن أبي عمرو . ثم عن أبي عبيدة مرة ثالثة ، ثم عن الأحمر ، ثم عن الأصمعي مرة ثالثة ، ثم عن أبي عبيدة مرة رابعة ، ثم عن الأصمعي مرة رابعة ، ثم عن أبي

عبدة مرة خامسة ، ثم عن الكسائي مرة ثالثة . وهكذا ينتهي الباب .

أما السيوطي فإنه جمع آراء كل عالم بعضها إلى بعض ، فبدأ بأبي زيد ، فالأصمعي ، فأبي عبيدة ، فالكسائي ، فالأموي ، فأبي عمرو ، فالأحمر . أما أبو عبيد فإنه كان - فيما يبدو - يَدُون في غريبه المصنف ، ما سمعه من شيوخه ، حسبما كان يقع إليه هذا المسموع يوماً بعد يوم . هذا إلى أن السيوطي ، حذف كلام اليزيدي ، والشواهد الشعرية المختلفة ، التي يمتلئ بها الغريب المصنف ، في هذا الباب .

• • •

وبعد ... فإذا للسيوطي في كتابه : «الزهر» ؟ إن له أولاً فضلَ جمع الحزليات الصغيرة من هنا وهناك ، في الموضوع الذي يكتبه . وهو يعزو كل قول إلى صاحبه في أمانة علمية فائقة . وإذا كانت تلك عاداته في كل نقوله هنا وهناك ، فإننا لا ندرى السر الذي جعله يجهل مصدره في تلك المواضع القليلة جداً في كتابه ، كقوله مثلاً : «وقال بعضهم^(٣٠)» ، أو : «وفي بعض النجمايع^(٣١)» أو : «قال أهل الأصول^(٣٢)» ، أو : «قال المعري في بعض كتبه^(٣٣)» ، أو : «قال صاحب زاد المسافر^(٣٤)» ، أو : «رأيت هذه الأبيات شرحاً في كرامة^(٣٥)» .

ولم يخل كتاب : «الزهر» بالإضافة إلى هذا الجمع الدموي ، والترتيب المعجب الرائق ، من خطرات هنا وهناك للمؤلف تعزى إليه وحده ، وهي في بعض الأحيان رأي له ، واجتهاد وصل إليه بتأقّب فكره ، وطول خبرته باللغة .

فهو يدخل أحياناً بجمل اعتراضية ، تفسر مبيها ، أو تشرح غامضاً ، أو تضيف جديداً ، كقوله مثلاً : «وقال ابن جني في الخصائص - وكان هو وشيخه أبو علي القارسي معتزليين^(٣٦)» ، وتوضيحه اسم إسماعيل بن القاسم البغدادي ، بأنه «هو أبو علي القالي»^(٣٧) ، ونعليقه على تعليم آدم للملائكة أسماء الأشياء ، بأن «في هذا فضيلة عظيمة ،

ومنتجة شريفة لعلم اللغة^(٣٨) ، ووصفه الراغب الإصفهاني بأنه «من أئمة السنة والبلاغة^(٣٩)» ، وتعليقه على قول السيرافي إن الخليل بن أحمد عمل أول كتاب العين ، بأن «هذه العبارة من السيرافي صريحة في أن الخليل لم يكلل كتاب العين ، وهو الظاهر لما سيأتي من نقل كلام الناس في الطعن فيه ، بل أكثر الناس أنكروا كونه من تصنيف الخليل^(٤٠)» . وليست كل تعليقات السيوطي على هذا النحو من الاختصار . وهذه تعلية طويلة ، يعرفنا فيها بقراءته لكتاب : «استدراك الغلط الواقع في كتاب العين للزبيدي» ويذكر لنا محتواه ، فيقول : «قلت : وقد طالعت إلى آخره ، فرأيت وجه التخطئة فيها خطئاً فيه ، غالبه من جهة التصريف والاشتقاق ، كذكر حرف مزيد في مادة أصلية ، أو مادة ثلاثية في مادة رباعية ونحو ذلك . وبعضه ادعى فيه التصحيف . وأما أنه يخطئ في لفظه من حيث اللغة ، بأن يقال : هذه اللفظة كذب ، أو لا تعرف ، فعاذ الله . وحيث لا قدح في كتاب العين ، لأن الأول الإنكار فيه راجع إلى الترتيب والوضع في التأليف ، وهذا أمر هين ، لأن حاصله أن يقال : الأولى نقل هذه اللفظة من هذا الباب ، وإيرادها في هذا الباب ، وهذا أمر سهل ، وإن كان مقام الخليل يتره عن ارتكاب مثل ذلك ، إلا أنه لا يمنع الوثوق بالكتاب والاعتماد عليه في نقل اللغة . والثاني : إن سلم ما ادعى من التصحيف ، يقال فيه ما قالته الأئمة : ومن ذا الذي سلم من التصحيف ؟ مع أنه قليل جداً^(٤١)» .

ولا تخلو تعليقات السيوطي من الرد على ما لم يعجبه من آراء العلماء ، وتفنيدها بالحجج والبراهين ، مثلاً رد على ابن جني قدحه في جمهرة اللغة لابن دريد ، فقال : «قلت : مقصوده الفساد من حيث أبنية الصرف ، وذكر المواد في غير محالها .. وهذا قال : أغلبر واضعه فيه لبعده عن معرفة هذا الأمر ، يعني أن ابن دريد قصير الباع في التصريف ، وإن كان طويل الباع في اللغة . وكان ابن جني في التصريف إماماً لا يشق غباره ، فلذا قال ذلك^(٤٢)» .

وكما رد على الأزهرى قدحه في ابن دريد ، ورميه بافتعال العربية وتوليد الألفاظ ، وأنه سأل عنه نفطويه ، فلم يعبأ به ولم يوثقه في روايته ، فقال : «قلت : معاذ الله ! هو بريء مما

رمي به . ومن طالع الجمهرة رأى تحريته في روايته ، وسأذكر منها في هذا الكتاب ما يعرف منه ذلك . ولا يقبل فيه طعن نفلويه ، لأنه كانت بينها منافرة عظيمة .. وقد تقرر في علم الحديث أن كلام الأقران في بعضهم لا يقدح^(١٢٧) .

وكذلك رد على الفخر الرازي ، حين ذكر أن أهل اللغة أهلوا البحث عن أحوال اللغات ورواها جرحاً وتعديلاً ، فقال : « وأقول : بل الجواب الحق عن هذا ، أن أهل اللغة والأخبار ، لم يهملوا البحث عن أحوال اللغات ، ورواها جرحاً وتعديلاً ، بل فحصوا ذلك وبينوه ، كما بينوا ذلك في رواة الأخبار . ومن طالع الكتب المؤلفة في طبقات اللغويين والنحاة وأخبارهم ، وجد ذلك . وقد ألف أبو الطيب اللغوي كتاب : مراتب النحويين ، بين فيه ذلك ، وميز أهل الصدق ، من أهل الكذب والوضع^(١٢٨) . »

وحين قال أبو الطيب في هذا الكتاب ، عن أبي عبيد القاسم بن سلام : « ولا نعلمه سمع من أبي زيد شيئاً » ، رد عليه السيوطي فقال : « قلت : قد صرح في عدة مواطن من الغريب المصنف ، بسماحه منه^(١٢٩) . »

وتبدو سعة علم السيوطي . حين يعمل مصدره تفسير شيء ما ، فيعثر عليه السيوطي مفسراً في كتاب آخر فيذكره ، كقوله مثلاً : « وقال ابن ولاد في المقصور والممدود : عثورا ، بضم العين والشين ، زعم سيبويه أنه لم يعلم في الكلام شيء على وزنه ، ولم يذكر تفسيره ... قلت : ذكر القالي في كتاب : المقصور والممدود أن العثورا : العاشورا . قال : وهي معروفة^(١٣٠) . »

وهو كثير التخريج لنصوص مصادره . من أجل توثيقها ، فقد خرج من أحد المواضع مجموعة من الأخبار التي نقلها من كتاب : « الصاحبي » لابن فارس . في المصاحف لابن أشتة ، والمستدرك للحاكم . والأوائل لأبي هلال العسكري ، والطيوريات لأبي طاهر السلفي ، والمصاحف لأبي بكر بن أبي داود . ومسنّد أحمد بن حنبل^(١٣١) . وفي موضع آخر ، خرج حكاية رواها عن تصحيف العسكري ، في معجم الأدباء لياقوت ، والحمقي والمغفلين لابن الحوزي^(١٣٢) .

وهو في تعليقاته حريص كل الحرص على توثيق نقوله ، بذكر خطوط العلماء الذين نقل عنهم ؛ كقوله مثلاً : «وجدت هذه الحكاية ، مكتوبة بخط القاضي مجد الدين الفيروز آبادي صاحب القاموس ، على ظهر نسخة من العباب للصغاني ، ونقلها من خطه تلميذه أبو حامد محمد بن الضياء الحنفي ، ونقلتها من خطه^(٤٩)» . بل إنه ليعلمنا في بعض هذه التعليقات ، بملكيته لنسخة ثمينة من جمهرة اللغة مقروءة على العلماء ؛ فيقول : «قلت : ظفرت بنسخة من الجمهرة بخط أبي الفتح أحمد بن عبد الرحمن بن قابوس الطرابلسي اللغوي ، وقد قرأها على ابن خالويه ، بروايته لما عن ابن دريد ، وكُتب عليها حواشي من استدراك ابن خالويه على مواضع منها ، ونبه على بعض أوهام وتصحيقات^(٥٠)» . وهو في أحد المواضع يقابل نسختين من كتاب الجمهرة ؛ فيقول : «وقال ابن دريد في الجمهرة : باب ما تكلمت به العرب من كلام العجم حتى صار كاللغز . وفي نسخة : حتى صار كاللغة^(٥١)» .

ويبدو في بعض تعليقات السيوطي ، استدراكه المكل لبعض المؤلفات السابقة ، فقد استدرك على القاموس المحيط أشياء وقال : «قلت : ومع كثرة ما في القاموس من الجمع للنوادر والشوارد ، فقد فاتت أشياء ظفرت بها في أثناء مطالعتي لكتب اللغة ، حتى همت أن أجمعها في جزء مديلاً عليه^(٥٢)» . كما استدرك على كتاب : «الاتباع» لابن فارس ، وقال : «وقد ألف ابن فارس تأليفاً مستقلاً في الإتياع ، وقد رأيت مرتباً على حروف المعجم ، وفاته أكثر مما ذكره . وقد اختصرت تأليفه وزدت عليه ما فاته ، في تأليف لطيف سميت : الإلماع في الإتياع^(٥٣)» .

وهو أحياناً يذكر الأقوال المناظرة لما هو فيه ، فبعد أن ذكر عن «الصاحبي» لابن فارس ، أن ابن خالويه قال : جمعت للأسد خمسمائة اسم ولحبة مائتين . قال : «قلت : ونظير ذلك في فقه اللغة للثعالبي : قد جمع حمزة بن الحسن الإصبهاني من أسماء الدواهي ما يزيد على أربعائة ، وذكر أن تكثر أسماء الدواهي من الدواهي . قال : ومن العجائب أن أمة وسَّت معنى واحداً بمئين من الألفاظ^(٥٤)» .

ونرى من بعض تعليقات السيوطي ، كيف أن علمه - رحمه الله - كان ينمو بكثرة الاطلاع على المصادر المختلفة بمرور الأيام ، فهذه قائمة استفادها من جمهرة اللغة ، كان قد سئل عنها فلم يعرفها ، يقول : «وهذه قائمة لطيفة ، لم أرها إلا في الجمهرة ، فكانت العرب تسمى : صفر الأول وصفر الثاني ، وربيع الأول وربيع الثاني ، وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ، فلما جاء الإسلام وأبطل ما كانوا يفعلونه من النسيء ، سماه النبي ﷺ شهر الله المحرم .. وبذلك عرفت النكتة في قوله : شهر الله . ولم يرد مثل ذلك في بقية الأشهر ولا رمضان . وقد كنت سئلت من مدة عن النكتة في ذلك ، ولم يحضرني فيها شيء ، حتى وقفت على كلام ابن دريد هذا^(٥٥)».

وهذه قائمة أخرى وجدتها السيوطي عند ثعلب ، بعد أن طال سؤاله عنها ، فقد قال بعد أن روى عن ثعلب في أماليه شرحاً للمثل : «لا يدري الحميّ من الليّ» أي لا يعرف الكلام البين من الكلام غير البين : «قلت : رضي الله عن سيدي عمر بن الفارض ، ما كان أوسع علمه باللغة ! قال في قصيدته اليازية :

صار وصف الضر ذاتياً له عن عناء والكلام الحميّ ليّ

ولما شرحت قصيدته هذه ما وجدت من يعرف منها إلا القليل . ولقد سألت خلقاً من الصوفية عن معنى قوله : والكلام الحميّ ليّ ، فلم أجده من يعرف معناه ، حتى رأيت هذا الكلام في أمالي ثعلب^(٥٦)» .

ولم تخل بعض تعليقات السيوطي من الوهم . ومن ذلك اعتقاده أن كلمة : «السبت» تعني في أصل اللغة : «الدهر» ، فقال في موضوع العام الذي خصص : «ثم رأيت له مثلاً في غاية الحسن ، وهو لفظ : السبت ، فإنه في اللغة : الدهر ، ثم خصص في الاستعمال لغة بأحد أيام الأسبوع وهو فرد من أفراد الدهر^(٥٧)» . والحقيقة أن «السبت» كلمة معربة عن العبرية שַׁבָּת Sabbāṭ ومعناها : الراحة !

ولكن مثل هذا الوهم نادر ولا يقلل البتة من قيمة الفوائد الجليلية ، التي نثرها في صفحات كتابه الضخم ؛ كقوله مثلاً : «فائدة : حيث أطلق أبو عبيد في الغريب المصنف وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر مجاورتهم للقبط والفرس» (٥٨) .

ويقف المرء حائراً أمام هذا النص ؛ إذ كيف يمكن لليمن أن تكون بالجزيرة مجاورة لليونان ؟ ثم كيف ليكر أن تمتد بمناحيا في شمالي الجزيرة العربية ، فتجاور في الشرق الفرس في إيران ، كما تجاور في الغرب القبط في مصر . وصواب العبارة كما في المصادر : «ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ، ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس» (٥٩) . فانظر كيف حرفت كلمة : «الفر» فصارت في نشرة المظهر : «اليمن» ، كما حرفت أختها : «النبط» ، فصارت في هذه النشرة كذلك : «القبط» !

(ج) روى السيوطي النص التالي عن ابن درستويه ؛ فقال : «قال ابن درستويه في شرح الفصيح : قول العامة : نحوى لغوي ، على وزن : جهل يعهل ، خطأ أو لغة رديئة» (٦٠) . وفي هامشه تعليقا على عبارة : «نحوى لغوي» ، قال محققو المظهر : «لم نقف على ضبط هذه العبارة» !

وهذا الذي لم يقف على ضبطه محققو الكتاب ، موجود على الصواب في مصدره : تصحيح الفصيح لابن درستويه ، وهو قوله : «نقول : غَوِيَ يَغْوِي ، على نحو : جهل يعهل» (٦١) .

. . .

وبعد .. فقد بلغ السيوطي في تأليفه شأوا لا يدرك ، وجهداً تقصر دونه الخطى .. وكتابه : «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» تاج على رؤوس هذه المؤلفات ، وغرة في وجه هذه التصانيف ، يشهد له بطول الباع في الدراسات اللغوية العربية ، والصبر والجلد في القراءة والجمع . رحم الله السيوطي رحمة واسعة ..

• الفوامش •

- (١) الزهر / ١ : ٤٦٩ .
 (٢) الزهر / ١ : ٤٠٩ .
 (٣) في الأصل : «الزجاج» وهو تحريف .
 (٤) الزهر / ٢ : ١٨٢ .
 (٥) الزهر / ١ : ١١٣ - ١١٤ .
 (٦) الزهر / ٢ : ١١٩ - ١٢٠ .
 (٧) الزهر / ٢ : ٣٩٥ - ٤١٤ .
 (٨) الزهر / ١ : ٣٥٩ .
 (٩) الزهر / ١ : ٦٦ - ٧١ .
 (١٠) الزهر / ١ : ٣٢١ - ٣٤٥ .
 (١١) الزهر / ١ : ٤٠٣ .
 (١٢) الزهر / ١ : ١٠ - ١٦ .
 (١٣) الزهر / ١ : ٢٤٧ - ٢٤٠ .
 (١٤) الزهر / ٢ : ٣٦٩ - ٣٨١ .
 (١٥) الزهر / ١ : ٥٩١ - ٦٢١ .
 (١٦) الزهر / ١ : ٦٢٢ - ٦٣٥ .
 (١٧) يلاحظ أن البيهقي لم يستلهم معجماً منها من معاجم الموضوعات ، وهو «الفحص» لا ين سيدة .
 (١٨) الزهر / ٢ : ٢٨٩ .
 (١٩) الزهر / ١ : ٥٣٧ .
 (٢٠) الزهر / ١ : ٦٢٢ .
 (٢١) الزهر / ٢ : ٣ .
 (٢٢) الزهر / ٢ : ٧٨ - ٩٠ .
 (٢٣) الزهر / ٢ : ٢٢٥ .
 (٢٤) انظر : الزهر / ١ : ٢٧٥ ، / ١ : ٤٢١ .
 (٢٥) الزهر / ١ : ٣٨٢ .
 (٢٦) الزهر / ٢ : ٣٠٤ .
 (٢٧) الزهر / ٢ : ٢٩١ .
 (٢٨) الزهر / ٢ : ٣٦٦ .
 (٢٩) الزهر / ١ : ٣٨٩ - ٣٩١ .
 (٣٠) الزهر / ١ : ٩٤ ، / ١ : ٢٧٤ ، / ٢ : ٢٨٦ وفي الموضع الأخير ذكر البيهقي تصبده توجد في القامة السادسة والأربعين من

مقامات الحريري ، وهي القائمة الخلية . ولا ندري السرّ في إغفاله مصدره هنا ؟؟

- (٣١) الزمر ٢ / ٣٦٨ .
(٣٢) الزمر ١ / ٣٦٨ + ١ / ٣٨٧ + ١ / ٤٠٥ .
(٣٣) الزمر ٢ / ١٠٥ .
(٣٤) الزمر ٢ / ٣٥١ .
(٣٥) الزمر ١ / ٣٨٠ .
(٣٦) الزمر ١ / ١٠ .
(٣٧) الزمر ١ / ٨٣ .
(٣٨) الزمر ١ / ٣٠ .
(٣٩) الزمر ١ / ٢٠١ .
(٤٠) الزمر ١ / ٧٦ .
(٤١) الزمر ١ / ٨٦ .
(٤٢) الزمر ١ / ٩٣ .
(٤٣) الزمر ١ / ٩٣ - ٩٤ .
(٤٤) الزمر ١ / ١٢٠ .
(٤٥) الزمر ٢ / ٤١٢ .
(٤٦) الزمر ١ / ١٦٩ .
(٤٧) الزمر ٢ / ٣٤١ - ٣٤٣ .
(٤٨) الزمر ٢ / ٣٥٤ .
(٤٩) الزمر ١ / ٩٥ .
(٥٠) الزمر ١ / ٩٥ .
(٥١) الزمر ١ / ٢٧٩ وفي الجمهرة ٣ / ٤٩٩ : «كاللفه» .
(٥٢) الزمر ١ / ١٠٣ .
(٥٣) الزمر ١ / ٤١٤ ويحمل قوله (١ / ٤٢٠) : «وفي كتاب الباع الإتياع لابن فارس» على السهو !
(٥٤) الزمر ١ / ٣٢٥ .
(٥٥) الزمر ١ / ٣٠٠ - ٣٠١ .
(٥٦) الزمر ١ / ٥٠١ .
(٥٧) الزمر ١ / ٤٢٧ .
(٥٨) الزمر ١ / ٢١٢ .
(٥٩) الاقتراح ١٩ وانظر الحروف للقاراي ١٤٧ .
(٦٠) الزمر ١ / ٢٢٥ .
(٦١) تصحيح الفصح ١ / ١١٩ .